

أين الحكمة في هذا العصر؟

الدكتور: عمار طالبي¹

¹ جامعة الجزائر- الجزائر

شهد القرن الماضي حربين كونيتين، كما شهد تقدما هائلا في العلم والتقنية لم يسبق له نظير، تحققت فيه آمال واسعة، وأخفقت أخرى، كما شهد ويشهد قرننا هذا كوارث بيئية ورعبا من تطبيقات العلم، وعظم عدد السكان في العالم، ونمو الثروات، وأخذ الناس يتغنون بالديمقراطية، ويسلمون بنجاحاتها، كما ظلت نظم كثيرة تثبت الطغيان، وتقهّر الإنسان، بجانب الرفاهية والغنى والليبرالية، تأكلت القيم والتقاليد، والاعتقادات، وساد في الآداب والفنون لون من اللإيقين والعدمية، واختفاء المعنى، فأصبح الكلام لا يحمل معنى يمكن الإمساك به، والاطمئنان إليه، وأصبحت اللغة عالما يسجن فيه الإنسان ويموت، ففي هذا التذبذب والتناقض، وقتل القيم، واغتيال العقل، وقهر المستضعفين، والعدوان على الثقافات الهشة ماذا يمكن أن يكون حكمة، أو مثالا، أو معنى ؟ عاش القرن الماضي الفاشستية، والنازية، والاستعمار، والماركسية، والرأسمالية، وثورات المستعبد، وصراعا مريرا باردا أو حارا بين قطبين، وبناء جدار برلين، ثم اختفى القطب الثاني، وذهب غبارا في التاريخ، وظن الآخر أن التاريخ قد انتهى، وأن الرأسمالية أضحت أبدية، وذهب آخرون إلى أن صراع الحضارات وإيقاد نارها أمر حتمي، ولابد من صنع عدو جديد يصارعونه حضاريا للقضاء عليه حتى لا تقوم له قائمة، ولا يرى نورا وهو العالم الإسلامي والصيني، فاشتعلت حروب باسم الإرهاب، ودمرت العراق، وما تزال فلسطين تدمر وتقهّر، وتذبح فيها الأطفال، وتشن على أفغانستان نيران تنال الأبرياء في ديارهم، تجنّد لها الحلف الأطلسي ليساعد الولايات المتحدة على قهر الشعوب، فهل في هذا السبيل كله من حكمة، وماذا تستطيع أن

أين الحكمة في هذا العصر؟

تقدم، فهل تقوى على أن تترى للناس سفينة يمتطونها ليتخذوا لهم سبيلا بين أمواج هذا البحر المتلاطم الأمواج، أم أنها تغيب أضواؤها وأشرعتها، ومحركاتها لتدع هؤلاء الناس تتجاز بهم الأمواج حيث اتجهت ساروا، لا حيلة لهم في قيادة السفينة ولا قوة ؟ ولكن الحكمة تزعم أنها تمثل الحقيقة والصدق الذي يمكن أن يواجه المعتاد والساد، ويشير إلى وجهة ليسلك الناس سبيلها غير هذا السبيل.

ويأسف صاحب الحكمة حينما يرى أن الفلسفة لم تسجل في الواقع تأثيرا ولم تصده عما هو فيه من عادة وصيرورة، وإنما كانت غالبا ما تسير ما استجد في العلم، وفي السياسة، أو ما سميه الإفرنجية "الموضة" ¹ حاولت أنماط من الفلسفة في القرن الماضي أن تبحث لها عن بداية جديدة، ووجهة أخرى، وأن تدفع ما تعتبره كما يرى الفيلسوف أنطوني البريطاني ² "نفاية الماضي" ولكنها في سعيها هذا الحثيث كنست كثيرا من القيم، وكثيرا مما هو محتاج إليه لتستند عليه الإنسانية، وترتبط به في مصيرها.

فنشأ تياران أحدهما اتجه إلى اعتبار العلم نموذجا وحيدا للبحث، وقاعدة فريدة للحقيقة، وثانيهما اتجه إلى نقد قاس لما هو سوي للذهاب إلى البحث الطويل عما هو أحق وأصيل، وكلاهما يركض إلى غاية موات، لا يخلو كل منهما من غموض، وشقشقة لفظية، وتقنيات باردة، وليس معنى هذا أن ترفض كل المحاولات الفلسفية وترمى، ويغبط حقها في التأمل، وتدقيق معاني الكلمات لتكون الأفكار واضحة، ولكن السؤال المهم هل هناك أمل في الحكمة كما يراها الذين يعتقدون أنها يمكن أن تلقي ضوء على المشكلات الأساسية في الحياة، وكيف يمكن أن نحيا حياة طيبة آمنة ؟

¹. Fashion.

². Anthony O'Hear, philosophy in the New century, Continuum, London –New york, 2003. p.v 111.

الدكتور: عمار طالي

هل الحكمة مجرد دراسة أكاديمية لا تعنى إلا بنفسها منقطعة عن حياة الناس، أم إنها ما يمكن الوصول إليه بالتأمل في الكون وفي التجربة الإنسانية من معنى جدير بأن يحيا الإنسان من أجله وبه ؟

يعتقد الذين يحبون الفلسفة، ويتصورونها أنها تقود إلى الحكمة، وهي أن ترشد إلى أفضل طريق لحياة الإنسان، وإلى أفضل مكانة يتمكن بها الإنسان في الكون، فتلك الغاية القصوى منها ومن حباها، لأنها تمدك برؤية عن مكانتك في العالم، وبرؤية عن حياة فضلى تحياها، فهي تصور نظري، وأخلاقي عملي أيضا.

الفلسفة في القرن العشرين يبدو أنها ابتعدت عن كل شيء اعتبر قديما حكمة، فأنت ترى في مسرح الفلسفة الغربية تيارا أنجلوأمريكي يقوم على تفكير عقلي استدلالي جاف يكاد يقتصر على البحث في معاني الألفاظ وتقليبها ظهرا على بطن، وتحليل لا يقف عند حدّ إلا حدّ الحس أو الصورة المنطقية المجردة، بجانبه تقليد آخر يقوم على الاستعارة، وعلى طوفان من البلاغة في أوروبا سوى بريطانيا.

وكلا هذين الاتجاهين فيما يرى " أنطوني أوهر " يقوِّض الحكمة ولا يقيّمها، سواء كان ذلك بشعور وقصد أو عن إهمال، فأفسد على الناس الحكمة في بريطانيا " برتراند رسل "، ورأى أن الأداة المثالية للتحليل والتفكير إنما هي المنطق الصوري كما رآه هو والفيلسوف الرياضي الألماني " فريجة قطلوب "، وبهذه الأداة تصبح الفلسفة ذات صرامة ودقة كصرامة العلم ودقته، وأصبح ذلك نموذجا³ يتبع، وباتت الفلسفة نوعا من العلم نفسه في منهجها، وفي نتائجها، فأنت إذا أخذت في قراءة صفحات المجلة الفلسفية أو العقل⁴ فإنك ترى كمّا هائلا من الرموز والعلامات والأرقام، ولغة عادية لا تشبه الإنجليزية الحقيقية، وإبعادا للفلسفة الأخلاقية والجمالية، لفقدانها المعنى، كما فقدت الميتافيزيقا

³. Paradigm.

⁴. Mind, The Philosophical Review.

⁵. Alain Sokel.

⁶. Scientism.

أين الحكمة في هذا العصر؟

معناها، كأنهم يريدون أن يجعلوا من الفلسفة فيزياء، أو رياضيات، وما انتهى ذلك فيما يرى أنطوني إلا إلى الإخفاق بسبب أنها اعتمدت كلياً على الحس وعلى مبدأ التحقق، فالواقع الإنساني أوسع من ذلك كله، وأخصب، وأغنى، والمناهج الفكرية لا تنحصر في الفلسفة التحليلية، كما فعل رسل، وكارناب، وشومسكي، ودافدستن.

وإذا رجعنا إلى الاتجاه الثاني الذي يمثله سارتر وهيدجر، وغيرهما من الكتاب أمثال بارث وفوكو ودريدا ولاكان، الذين استوحوا هيدجر وسارتر فإننا نجدهم يرفضون مزاعم العلم ودعواه، أنه يمدنا بالحقيقة عن العالم الفيزيقي، واتجه أغلبهم إلى التطرف السياسي، فهيدجر كان نازياً، وسارتر تأثر بالستالينية والمأوية، فهذه الفلسفات تنتهي إلى نوع واضح من العدمية، وصنع هيدجر لنفسه لغة غامضة، لا تكاد تدرك، وامتدح هتلر وموسوليني، وعند سارتر "السوى هو جهنم" فغيره من الناس جحيم يطارده، وإن كان انحاز إلى حركات التحرر خارج فرنسا، وقام كلاهما بثورة ضد معايير وبنى المجتمع الغربي، وأنكر "فوكو" أي فكرة ثابتة عن طبيعة الإنسان، وجاء "جاك دريدا" فلم يقتصر على هدم طبيعة الإنسان، بل هدم العالم نفسه فلا تستطيع أن تفر من سجن اللغة والفكر، فكل محاولة لشرح ماذا نريد أو نفكر فيه لا يؤدي إلا إلى مزيد من اللغة والفكر، فلا نكاد نخرج من اللغة إلى العالم نفسه، وأنكى من ذلك، فإن الأشياء التي قيلت أو فكر فيها هي مجال لتأويلات متعددة لا تكاد تصل إلى معان نهائية فيها، والعالم يؤول باستمرار خلال نصوص اعتباطية، فلا سبب يدعونا أن نسمي كرسياً بكرسي، ولا باباً باب، فالكلمات اعتباطية ومعانها لا يقينية، وليس هناك مؤلف لهذه النصوص مسؤول عن معانها، ولا يمكن أن يكون هذا العالم عالماً ننفذ إليه، فليس حولنا إلا نصوص تتسع أكثر فأكثر، قائمة بيننا وبين العالم، لا نكاد نمسك بمعنى لها محدد مقنع، أو يقيني، هذا يؤدي إلى اختفاء الذات نفسها، كما

الدكتور: عمار طالي

اختفى العالم، واختفى المعنى، فلا توجد إلا النصوص التي نطقت بها الذات " Il n'y a pas d'hors texte".

الهدم أو ما يسمونه التفكيك هو الغاية، إنه قرار يهدم كل شيء من حوله في العالم، فالأنا باعتبارها فكرا أو كلاما إنما هي نص أيضا، الذات الحقيقية الجوهرية لا يمكن إدراكها إلا من خلال حجاب النصوص، ينطبق هذا على كلامه كما ينطبق على كلام الآخرين.

فماذا يريد فوكو ودريدا من تفكيك الواقع الموجود : اللغة وبنى السلطة إلا تحرير هذا المفكك نفسه من وجود أي إكراه أو قيد، ومن ثم فالغاية القصوى من التفكيك إنما هي إثبات الذات أي ذات المفكك ونفي ما عداها، ولذلك فإن الأغيار هم الجحيم، ليس في هذا القول اتساق ولا تماسك، فالذات لا فكاك لها من الآخرين، فلا ذاتية لك دون مجتمع يبتدئ منه تكوينها والاعتراف بها، وربما هذا الوضع هو الذي يفسر لنا لماذا كان هؤلاء المفككون من هيدجرومن جاء بعده منجذبين إلى الجماعات الثورية، فذاتهم العدمية تحتاج إلى جمهور يسند أحلامها في التحرر والانفلات من كل سلطة ومن كل عائق.

وصلت هذه العدوى إلى أحد الفزيائيين ألان سوكال⁵ الذي ركب تيار التأويلية إلى القول بأن العالم الفزيائي الواقعي ليس سوى واقع اجتماعي، فهو في أساسه بناء لغوي اجتماعي، وهو أبعد ما يكون عن الموضوعي، وإنما هو انعكاس للإيديولوجيات المهيمنة ولعلاقات القوة، وللثقافة التي أنتجته، مستندا إلى مفكري ما بعد الحداثة، فهذان التياران مشتركان في إنكار الحرية من حيث إرادتها، ويريان الفرد في حدود مادية، وليس للإنسان طبيعة ثابتة، وينكران أية حكمة عالية، أو إمكان أن تمدنا الفلسفة بأي نور من الحكمة، إنه تفكيك لعالم الإنسان، ولا يمكن الوصول إلى حقيقة، فنحن إذن أمام تفكيك ينتهي إلى العدم، أو أمام علموية⁶ مغالية، فلا نصل إلى مفهوم لأنفسنا ولا لغيرنا ولا للعالم.

أين الحكمة في هذا العصر؟

يمكن تفادي هذا الضياع والعدمية بما يحررنا من هذه الشقشقة اللفظية، ويقوم على التجربة والحجة العقلية لنصل إلى ما يمكن أن يكون حكمة بناءة، إذ توجد لدينا أوجه لتجاربنا وللوجود أكثر أصالة وأهمية من العلم، بل العلم يتوقف على إمكانياتها، لذلك لا يمكن أن يستعمل العلم لتقويض هذه الملامح من طبيعتنا، فعمل هؤلاء إنما هو تشويه لذواتنا باعتبارها كائنات حرة، ولتجارب عالم الإنسان، ولذلك فإن هذه الصورة مآلها الرفض، وإلا بقينا في عالم عقيم لا يجد الإنسان فيه إلا الجذب، وصحراء لا متناهية، لا معالم فيها، ولا إشارات تهديك سبيلا، أو تحقق لك غاية.

وأطّلت علينا في هذا القرن الماضي أيضا أبحاث البيولوجيا الهائلة، والهندسة الوراثية التي يريد أصحابها استعمالها في صنع إنسان ذي مواصفات وسمات تُحدّد قبلها، وجعلتنا على أبواب أخطار تغير طبيعة الإنسان ليصبح صناعة من الصناعات، ويتصرفون في الأجنة تصرفا يقضي عليها، أو يخزنها في بنوك تستعمل عند الحاجة، ويقتل ما بقي منها كأنها نوع من الأشياء، أو الفواكه التي يتخلص منها إذا انتهى وقت استعمالها غذاء، كما يمكن استنساخ الإنسان كما يستنسخ النبات، أو الحيوان، وتصنع الذكور فقط، أو يقلل من الإناث مثلا، وبذلك نفسد نظام عالم الإنسان الطبيعي، لنخلص إلى عالم الإنسان الصناعي على حسب رغباتنا وأهوائنا، ونعتدي بذلك على حق الحياة بعنوان حياة فضلى، وإنسان أقوم، وندوس على قيمة الإنسان وكرامته، وسرّ وجوده، فيضحى شيئا من الأشياء يباع ويشترى من البنوك، أو يوضع في أرحام تُكترى أو نلجأ إلى حيوانات منوية وبويضات تباع من أنابيب، ثم توضع في أرحام لا صلة لها بها، مجهولة الأصل والمصدر.

وجاء غرور القوة والغطرسة الإمبراطورية وأوهم أن حركات تحرير الأوطان إرهاب ينبغي القضاء عليها وحصارها، وتجييش الجيوش لدفنها تحت التراب،

الدكتور: عمار طالي

لاستعمار الشعوب مرة أخرى باسم نشر الديمقراطية التي ليس لها معنى إلا في أوطان هؤلاء، وباسم الحرية التي لا ينبغي أن يتمتع بها إلا المواطن المتحضر! كما ليس له من حقوق الإنسان شيء لأنه خارج عن عالمهم وإنسانيته. كما بدأ شراحتكار إدارة الأموال والعبث بها، والتصرف فيها على غير هدى، مما أدى إلى انهيار هذا النظام المالي العالمي الذي خلا من العدل، وحسن الإدارة، فأل إلى جسيم من الخسارة، فأين الحكمة في توجيه هذا كله ليتعايش الناس، ويعترف بعضهم ببعض اعترافاً بالإنسانية المشتركة، والقيم المشتركة، والبعد عن الغطرسة ؟

وهذا السلام العالمي اختفى من العالم، وتحكم في مجلس الأمن مجلس آخر للتخويف والعقاب والتهديد به، وبعدم الأمن، اتخذته أداة لتحقيق غاياته لقوة هذه الدول التي تستعمله وعظمتها، ترهب به الشعوب الأخرى التي تريد أن تكون لها إرادة مستقلة، وتأبى التبعية والبقاء في التخلف، ومن تهيأ لصنع الطاقة وتقنياتها قمع واتهم بصنع الأسلحة النووية، ولا يقبل منه صرف ولا عدل مهما يقدم من ضمانات ومواثيق، ويعتمد على الكذب في شنّ الحروب على العراق وغيره، فعلى الحكماء وأهل العقل أن يعيدوا للعقل نوره الذي حاولت فلسفة ما بعد الحداثة أن تشوّهه، وأن يطفئوا نار الهوى ليرتفع المتخلفون إلى مستوى الحضارة، ويرتفع المتحضرين إلى مستوى الإنسانية، فإنه إذا غابت القيم ساد توحش الإنسان وفقد إنسانيته كما عبّر عن ذلك ابن خلدون من قبل، وإذا توحش الإنسان اتقدت الحروب، وأفنى الناس بعضهم بعضاً، وفسد العالم، فهل من آفاق جديدة تبشر الإنسانية بالحكمة الضائعة التي ضلت طريقها ؟

فأي شعب ضعيف محتل يصبح خروفاً يفسد على الذئب أمره، ويكدّر عليه ماء النهر، فلا بد من أكله غداء أو عشاء، واستضافة من يساعد على افتراسه، وسلخه، وتقطيع أوصاله من الذئاب الأخرى المتحالفة معه في صيد خيرات الشعوب، وامتصاص دماءها.

أين الحكمة في هذا العصر؟

وبعض هذه الدول الكبرى كالصين، وروسيا، والهند، واليابان مشغولة بمصالحها، وبناء ذاتها، لا تقف مواقف النهي عن المناكر، ولا تريد أن تكون سندا للمظلوم الذي ترى بوضوح أنه مظلوم، فنحن بين ظالم يجهر بظلمه، وسأكت لا يجهر بالحق، ولا ينطق به، وبسكوته أعان على المظلومين، وهذا العالم الإفريقي الآسيوي الذي كنا ننتظر منه وقتا ما شيئا معتبرا يحدث توازنا في العالم، ويقف موحدا مواقف تعيد إليه حقه، وتدفع عنه المظالم والمناكر تأكل وتشتت، وفقد توازنه وفعاليته فخيّب الآمال، وانقطع منه الرجاء، وهذا العالم الإسلامي تكالب عليه الأقوياء، وجاسوا خلال دياره فأصبح أغلبه في تبعيّة واستكانة، وتخلف فكري ومادي، بما في ذلك العالم العربي الذي استهان بوجود إسرائيل أول أمرها حتى أصبح عاجزا اليوم عن رد ظلمها وغطرستها.

الحكمة في العالم الإسلامي لا تكاد تقف على سوقها، والدراسات الفلسفية فيها إنما هي صدى للفلسفات الغربية، وتقليدا لمذاهبها ودراسة لتاريخها وترجمة معانيها ترجمة تخلو من الوضوح، وتتسم بالخلط والإبهام، وتحريف الأفكار والمفاهيم أحيانا كثيرة، أما الإبداع والعناية الكافية بأهم مشاكل الأمة، وإضاءة طريقها، فقل من سلك هذا المسلك، أو انتهج هذا المنهج كما حاول محمد إقبال، ومالك بن نبي في القرن الماضي، ولم يجد صوتهما صدى ولا تأثيرا واضحا، لأن إهمال الفكر رسة من سمات التخلف الذي نعانيه، فالفكر والثقافة آخر شيء له وزن عندنا إن لم يعدم فيه الوزن مطلقا، فلا يخضع للجاذبية، فضلا عن الانجذاب إليه والتعلق به.

والمشتغلون بالحكمة عندنا يقتصرون على الفلسفة الأوروبية (الفرنسية والألمانية خاصة) ولا يلتفتون إلا نادرا إلى الفلسفة الانجلو سكسونية، وأما الفلسفة كما تجري في الهند، أو الصين، أو اليابان، فهم عنها غائبون مطلقا،

الدكتور: عمار طالي

استعمرتنا الفلسفة الأوروبية، كما استعمرتنا سياستها وثقافتها ردحا من الزمن، وما تزال تلاحقنا أو نلاحقها ولا نلحق بها.

ألا متى نبلغ درجة الاجتهاد في الحكمة ؟ ونخلص من التبعية والانغلاق في فكر غيرنا لا نتجاوزه ؟ إن دمننا في هذا السبيل فمصيرنا العقم والقحط في الأفكار كما أصبنا بالعقم في إنتاج العلم والتقنية إلى يومنا هذا، فالعلم نقرأه ونقرئه بلغة الآخر، ونسجن أمخاينا فيها، ولا نتحرر باستعمال لساننا الذي نشأنا فيه، وتربت ذاتيتنا عليه لنبدع ونخترق الآفاق الضيقة، والألسنة المعوقة عن إنتاج العلم، وإبداع الفكر والتقنية كما فعل غيرنا بألسنتهم وأدوات التفكير ومناهجه.